# واقع الترجمة وتحدّيات الألفية الثالثة

بقلم : وفاء صبحي
جامعة عنابة

**مقدّمة :**

تشـــهد الســـاحة العالمية أحداث سباق محموم ، يحطّم كلّ قوانين الوقت والمسافات ، ســـباق فـــي كلّ الاتّجاهات ، وبكلّ الوسائل ، المشروعة منها وغير المشروعة، صراع مستميت ، ومنافسة عنيفة من أجل تقديم الأفضل ، واحتلال مراكز الصّدارة عصر انطبع بانهيار المسلّمات والبديهيات ، وانتفت فيه مفاهيم المستحيل والمحال ، حتى غدت الحدود بين الواقعي ، والمحتمل ، والخيالي ، واهية وشبه منعدمة ، عصر تسامت فيه تطلّعات الفرد حتى لامست بوّابات الخيال ، وتلك ضرورة تفرضها التّغيرات السريعة ، المفاجئة ، التـــي تطـــبع البيئة الحالية ، التي تجمع كلّ صنوف التّناقض ، وتلبس لبوس المصالح ، شعارها القوّة ، والمادّة ، والسلطة بمعانيها المطلقة .

وكـــي لا نضـــيع فـــي ســـراديب التّشـــاؤم المظلمة ، يجب أن نعترف بمزايا عصر المعلومات ، الذي قدّم خدمات جليلة للإنسان ، ويسّر له سبل الحياة المادّية بكل عناصرها الحضارية ، التي تتبدّى في زيّ تقاني مهول .

مـــا مـــن أحد يستطيع اليوم أن يصدر حكما بخصوص مستجدّات هذا العصر ، فهل عصـــر المعلومـــات – الـــذي يشيّد صرح الجانب المادّي على أنقاض كل ما هو معنوي وإنســـاني – يسعى إلى تحقيق أمان أفراده واستقرارهم ؟ أم هو يسعى بخطى حثيثة نحو هاوية سحيقة يتساوى فيها الإنسان بالآلة ؟ .

إنّــنا لا ننكر مزايا التّقدّم العلمي ، كما لا ندّعي إمكانية السّباحة ضدّ التّيار ، والأكثر من ذلك ، علينا أن

نتمثّل فكرة ضرورة التّسلّح بالدّينامية والمرونة في التّعامل مع متطلّبات هذا العصر ، الذي أثبت انتصار عقل الإنسان ، كما أثبت عبقريته .

لقــد بــات الأمــل معقودا على ضرورة تطبيق مبدأ الحيطة ، والحذر ، والانتقاء الواعي ، فالواقع يفرض علينا محاولة التأقلم والتّكيف مع المعطيات الحضارية الجديدة ، ولكــي يكــون الاختيار صائبا علينا تمثّل مظاهر التّطور ، وغربلة كل وافد ، وتخيّر ما يناسب ثقافتنا ، ونبذ كلّ دخيل ، إذ " لا سبيل ، إلاّ الإغراق في مكاسب هذه الحضارة، وامتصاصها ، والتّسلح بها " (1) .

ولهــذا يجــب أن نلــمّ بمفاتيح ثقافة الآخر وحضارته ، وقيمه ومعتقداته ، لأنّها السّر الحقيقي للقوّة والسلطة فما السبيل الذي يكفل لنا تحقيق ذلك ؟ .

لا شــكّ أنّ أضــمن سبيل هي اللّغة ، فإذا امتلكنا ناصية لغة غيرنا ، أحكمنا السيطرة علــى عناصــر وصــفة الدّفــاع عن ثقافتنا ، والاعتماد على مقوّماتنا في تحقيق معادلة التطوّر .

فــإذا كانــت اللّغــة هــي البوّابة التي سنعبر من خلالها السرداب الذي نتخبّط بين جدرانه، فإنّ الترجمة هي مفتاح هذه البوّابة المنيعة .

**1 – واقع الترجمة وآفاق العولمة : –**

تعــدّ الترجمة واحدة من أهم التقنيات الفعّالة في نقل المعلومات ، وفتح المجال واسعا أمــام الحــركة الحرّة للعلم والمعرفة ، كما أنّها آلة جبّارة تمزج ثقافات الشعوب بعضها بــبعض ، لأنّهــا الأداة المثلى لكسر العزلة اللّغوية بين سائر الأمم ، و ضمان التواصل

اللّغــوي والثّقافــي بين مختلف الحضارات ، وإن كانت الترجمة قد لعبت دورا رياديا في عصــور ماضية ، فالمهمّة الموكلة إليها في عصرنا هذا أهمّ وأخطر، فلا أحد ينكر قيمة تلــك الدّرر الثمينة التي أثرت مكتبات العرب والغرب – على حدّ سواء – قديما ، حيث تحرّكــت الترجمة في كلّ الاتّجاهات ، فكم ساهمت في إغناء رصيد اللّغة العربية باقتباس أهم ما تمخّض عنه فكر اليونان ، والهند ... وغيرها من منارات العلم والحضارة ، وكم أفاد الغرب من جهود العلماء العرب في كافة المجالات ، وفي شتّى العلوم ، التي مازالت شمسها ساطعة وهّاجة ولن تأفل أبدا ، وتاريخ الحضارة العربية يشهد بذلك ، كما أنّ واقع التّطوّر الغربي المهول مدين للفكر العربي بالكثير حتّى وإن أنكر ذلك .

ولــيس يخفــى أنّ الترجمة تفرض مبدأ التأثير والتأثّر ، لأنّها تعمل ضمن حيّز لغوي طرفاه لغتان مختلفتان ، لغة أم ، ولغة هدف ، وبدهي أنّ اللّغات تختلف فيما بينها اختلاف لا حــدّ له ، لكــن هــذا لا يمنع اشتراكها في كلّيات لغوية ، تشكّل الثّغرة التي ينفذ من خلالها المترجمون بغية إيجاد أرضية تواصل وتلاقي بين هذه اللّغات .

وكثيرة تلك الأوصاف التي وصفت بها الترجمة ، ولعلّ أشهرها " الحسناء الخائنة " لأنّهــا أثــناء رحلة نقل معالم لغة ما ، تسقط كثيرا من الملامح الجمالية لتلك اللغة ، التي تــتفرّد بســياقاتها الثقافــية ، وأساليبها اللّغوية ، فلكل لغة خصوصية ، إذ لا تخضع كلّ التّراكيــب إلــى الــترجمة ، وإن كان لها مفعول السّحر في لغتها الأصلية ، إلاّ أنّه بعد ترجمتها قد تبدو عادية وربّما مبتذلة .

وإن أثبتــت الــترجمة نجاعتها في نقل عصارات البحث العلمي والتقني بين اللّغات، فدورهــا يظــل محدودا على السّاحة الأدبية ، لما ينطبع به النّص الأدبي من ممارسات إيحائــية ، وانــزياحات دلالية إذ نجده يظهر ما لا يبطن ، ويمارس لعبة المجاز ببراعة، فيصوّر الخيال في شكل حقيقة ، ويلبس الحقيقة ثوب الخيال .

رغـم هذا ، لا يمكننا إنكار تلك الخدمات الجليلة التي تقدّمها الترجمة مع كل فجر يوم جديـد ، وإن كنّا قد نوّهنا بأهمّية الترجمة في فترات زمنية سابقة ، فإنّ دورها في عصر المعلومات الذي نعيشه دور مهم بل محوري ، إذ تساهم في إجلاء الحقائق المغلّفة ، وفكّ شـفرات الإيديولوجـيات المصدّرة عبر السلع الثقافية ، وفضح النّوايا المبيّتة المتخفّية في خطابات دعاة السّلام العالميون ، صنّاع الحروب ومدمّروا الحضارات .

وحـتى نلـتزم الموضوعية يجب أن نقول : إنّ الترجمة واحدة من سبل نمو اللغة ، وسـرّ مـن أسـرار الوضع فيها ، فلا شكّ أنّ اللّغات باحتكاكها بعضها ببعض " تؤثر وتـتأثر، تأخذ وتدع ، وهي فيما تأخذ وتدع كأنّها تتنفّس ، والتّنفس أولى صفات الحياة " ( 2 ) ، ومـن هنا تتجلّى الحركية التي تضفيها الترجمة على اللّغات ، وليس يخفى أنّ العـالم الذي نعيش فيه مقسّم قسمين يتفاضلان من حيث مستوى التطور ، وتسخير أسباب الحضارة ، قسم أتقن معادلة التقدّم التكنولوجي ، وقسم تابع له ، يتقفّى آثاره ويجترّ أفكاره عن فهم ، أو عن تسليم بصحّتها حتى وإن تنافت مع معتقداته وقيمه .

ومع هذا ، لا يمكننا ادّعاء أنّ الترجمة وحدها قادرة على تعديل كفّة الميزان المائلة ، كمـا لا نزعم أنّ نقل ما توصّلت إليه الحضارات الغربية إلى لغاتنا ، سيضمن لنا الفكاك مـن التّخبط ، والنّعيم بالتطور والرقي لكن يبقى أخذ الجزء أفضل من ترك الكلّ ، ولذا عليـنا أن ننظر إلى آلية الترجمة نظرة تبصّر ووعي ، لأنّها بحق وسيلة فائقة الأهمية ، وتتجلّى أهمّيتها في توفير الجهد والوقت على الباحثين في مجالات حيوية تساهم في إزالة الغـبار عن وجه ثقافتنا العربية ، التي تعاني الإنعاش إن لم تكن تحتضر إضافة إلى إغناء أرصدتنا اللّغوية والثقافية بخلاصة عقول أنارها العلم والتّطور ، علّنا نستمدّ من إشعاعها قبسا من نور يرسم لنا معالم الطريق الذي خرجنا عنه حينما تخلّينا عن مقوّمات شخصيتنا ورحنا نلهث وراء فتاة ولائم صنّاع الحضارة .

بعد كل ما قيل ، نحاول إجراء الموازنة التي أشرنا إليها سابقا حول راهن الترجمة ودوامة عصر المعلومات ، ونسأل : ما التأثير الذي قد تحدثه هذه التقنية في الدرع الفولاذية لعصر المعلومات (العولمة ) ؟ ، كيف يمكن الاستفادة من الترجمة في عصر التّغيرات الحثيثة ؟ عصر اتّخذ قاعدته فوق رمال متحركة ، تحركها تلك السرعة الهائلة التي تطبع تغيّر الأحداث والموجودات .

قبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة ، أودّ أن أقف برهة عند مصطلح " العولمة " ، وهو مصطلح جمع بين الشهرة والضبابية ، وهما ضدّان لا يأتلفان.

فالعولمة هي جديد ظاهرة قديمة، إذ تمتدّ بجذورها إلى قرون سابقة ، وهي إفراز لتفاعل عوامل شتّى في مختلف المجالات ، فالعولمة " هي حركة تدويل الاقتصاد ، وفتح المجتمعات بعضها على بعض من خلال تسهيل نشاط التّبادلات في العالم ، فهي تلغي الحدود والمسافات ، وتهدف إلى ربط أجزاء العالم ، وتجسيد مشروع القرية الكونية " ( 3 ) ، إذ يرى المحلّلون أنّ أهم عوامل بروز هذه الظاهرة التطور التقني المهول في مجالات النقل والاتّصال ، والمتفقّي لآثار هذه الظاهرة العالمية ، سيلحظ أنّها قد انتقلت كالعدوى ، لتشمل كلّ مجالات الحياة اليومية للفرد بعد أن اشتعلت شرارتها الأولى في مجال الاقتصاد ، وشملت مجالات الفنون ، والتجارة ، والسياسة ، والثقافة ...إلخ... فهي تترجم اتّساع الرقعة الجغرافية للتّبادلات بمفهومها المطلق مثل رؤوس الأموال ، والتعاملات ، والمعلومات ، والسلع والخدمات ... ، وكذا اتّساع مجالات هذه التبادلات، كما تشكّل منبرا لبثّ الإيديولوجيات ، وقناة لتمرير السلع الثقافية .

والرأي الذي يصف العولمة بأنّها ظاهرة جديدة ومفاجئة ، رأي يعتوره الكثير من الزّلل ، فهي كباقي الظواهر الأخرى ، تشهد مخاض ولادة ، ومراحل نمو ، فكما أنّ التطوّر لم يحدث فجأة ودون سابق مقدّمات ، فالأمر نفسه بالنسبة للعولمة التي سارت

جنبا إلى جنب مع مستجدّات البيئات المتعاقبة حيث زامنت السفن الشراعية، ثم البخارية، ثـم القطـار فـائق السرعة، ثم البرقيات، ثم الهاتف وأخيرا الإنترنيت، فعندما تهيّأت لها الـتربة الخصبة التي تمدّها بوسائل الانتشار، امتدّت واستطالت وكسرت مفاهيم الحدود، والمؤكّد " أنّ العولمة باتت واقعا لا مفرّ من التعامل معه، فليست هي بالفجر البازغ ، ولا بـالفخّ الخادع ، وعلى عاتقنا تقع مسؤولية العيش في ظلّ ما تفرضه من قيود وما تتيحه من فرص " (4) .

ونجـد أنفسـنا – مـرّة أخرى – أمام ضرورة تطبيق مبدأ الانتقاء الواعي، واليقظة الحـذرة فـي الـتّعامل مع كلّ وافد، وأطرح التّساؤل من جديد : من أيّ منفذ ستتعامل الـترجمة مع هذا الأخطبوط العملاق ؟ ما هي الأهداف التي نرمي إلى تحقيقها من خلال توظيفنا للترجمة ؟ .

لا شـكّ أنّ المقصـود هو محاولة النزول إلى حلبة الصراع شاهرين سلاح الترجمة، لأنّ الارتمـاء في أحضان العولمة دونما أسلحة تقينا سلبياتها الكثيرة هو انتحار محقّق ، لأنّ الإغـراق المطلـق في مكاسب هذه الظاهرة ، يعني ضمنيا التنصل من الجذور التي تشـدّنا إلـى أرض ثقافتنا ، فمن أهم ما تكفله لنا الترجمة ، التصدّي لهيمنة لغات الدول المتقدّمة ، فالصّراع يبدو لغويا في ظاهره ، لكن الخطر أعظم من ذلك بكثير ، فالصراع اللّغـوي يبطن صراعا عرقيا ، وعقائديا ، وثقافيا ، وحضاريا ... ويتّخذ وجوها كثيرة ، كمـا أنّ الـترجمة تساهم في الدّفاع عن اللغات القومية ، من خلال فهم أسرار الثقافات الأخرى ، فالمترجم الجيّد يمكنه استيعاب ما تخفيه السطور ، وما تبطنه الأفكار ، فإذا نقل مكـنونات الـثقافات الأخرى بأمانة وموضوعية ، تلافى المطّلعون على هذه الترجمات الوقوع في أفخاخ مزيّنة تشبه أقفاص العصافير المشكّلة على هيئة قصور .

وإذا أردنا تعداد فوائد الترجمة ، فلن نحصيها جميعها، وسنكتفي بالقول : إنّها النافذة التي نطلّ من خلالها على ثقافات غيرنا من الأمم ، وحضارات ما عدانا من الأقوام ، إذ تعدّ الجسر الرّابط بين الشعوب ، أضف إلى ذلك أنّ الترجمة توفّر الجهد والوقت على الباحثين في مجالات حيوية ، فبدلا من هدر الوقت في محاولة تعلّم اللّغة الأجنبية بغرض الإطلاع على منجزاتها ، يقوم هؤلاء الباحثون بتكثيف جهودهم ، وعصارات أفكارهم قصد ابتكار الجديد والتّحرر من أغلال التبعية .

وبدهي أنّ غياب الترجمة يضطرّنا إلى استبدال لغتنا بلغات غيرنا من الأقوام بغرض التّعرف على آخر مستجدّات العلم ، ونقوم – بذلك – مقام من سجّل لصالح خصمه هدفا في مرماه ، كما أنّ توظيف لغات أجنبية في البحث ، يؤدي إلى التباس مفاهيم اللغات الجديدة مع مفاهيم اللغة الأم ، فتتطبع نتائج البحث بالهشاشة وعدم الدّقة ، فالباحث بلغة أجنبية يظلّ شغله الشاغل الركض خلف ما تجود به قرائح المبدعين أهل اللغة التي يوظّفها في أبحاثه ، ويقضي معظم وقته في محاولة تمثّل ما وصل إليه غيره من الدارسين الأجانب ويحرم – بذلك – لذّة الإبداع ، فما إن يدرك المفاهيم اللّغوية والعلمية المتوصّل إليها حتى يقطع غيره أشواطا واسعة في البحث والتحصيل ، فقد أثبتت النتائج أنّ إدراك المفاهيم باللّغة الأم أفضل بكثير من تعلّمها بلغة أجنبية ، وهذا يحيلنا إلى إشكالية توليد المصطلح وتوحيد استعماله فلو اعتمدنا لغتنا مصدرا لوضع سجلاّت اصطلاحية تناسب تلك المفاهيم العلمية الحديثة، لما عانينا في أبحاثنا – اليوم – من فوضى مصطلحية ، وتوظيف عشوائي ذاتي للمصطلح العربي .

وليس يخفي أنّ انعدام الترجمة يعزّز الرأي القائل بقصور الفكر العربي ، وعجزه عن الخوض في مفاهيم علمية جديدة ، وفي الوقت نفسه ، يضفي على العقلية الغربية صفات الذكاء الوثاب ، والعبقرية المتفرّدة .

ويبقى أهم دور تلعبه الترجمة ، التّقليص من حدّة التبعية والانقياد للأمم المنتجة للعلم ، وكـذا تحجـيم هيمـنة لغـات الدول المتقدّمة ، وذلك من خلال إعادة الاعتبار للّغة التي اصـطفاها الله لتكون لسان وحيه والوثوق بغناها ، وبقدرتها على مجاراة الإيقاع السريع للتطور العلمي والتكنولوجي .

إنّ الـترجمة حـوار حضاري بين الثقافات والأمم، وضرورة ملحّة تستدعيها طبيعة عصـرنا الذي يفرض إلزامية الانفتاح على عوالم جديدة ، وتبادل الخبرات والمعارف ، فالعـزلة اللّغويـة تعنـي انتحار اللغات فاللّسان ( اللغة ) الذي لا يؤثّر ولا يتأثّر يشيخ ويهـرم ثم يموت ؛ وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف السياسي الهندي " غاندي " : " يجـب أن أفـتح نوافـذ بيتي لكي تهبّ عليها رياح كل الثقافات بشرط ألاّ تقتلعني من جـذوري " (5 ) ، ولا شكّ أنّ البيت هو البيئة الداخلية ، والرياح السيارة هي منجزات الأمـم الأخـرى ، والنافذة هي الترجمة ، ولا ريب أنّ مقصد هذا الفيلسوف الحكيم ، هو توخـي الحـذر في التعامل مع كل وافد ، واتّقاء الانزلاق المميت إلى منحدرات التنصل مـن الجـذور ، ففقدان الانتماء يعني فقدان الهوية ، وبالتالي التماهي والذوبان ضمن أية ثقافـة هجيـنة ، حـتى وإن كانت لا تتماشى مع واقع الثقافة الأصلية ، وفي هذا عظيم الخطر.

فالعولمة – في حقيقتها – مشروع يهدف إلى صهر بعض الثقافات في بوتقة الحضارة الغربـية المغـرقة في المادية بطمس معالمها ، وتصفية بعض الحضارات الأخرى التي تستعصـي على سياسة الترويض فدورها يتجلّى في صبغ الحياة الاقتصادية والثقافية ... بالصبغة العالمية ، فهي ترفض مصطلحات الحدود والحواجز ، ومن ملامحها زيادة النظم المعلوماتـية ، والـتقدّم التكنولوجي الذي شمل كل الميادين – وبخاصّة – مجالات النقل والاتّصال التي شهدت تطورا خرافيا .

وما العولمة إلاّ شعار لعالم أحادي القوى ، نحكمه جملة من المباديء للطوي على كثير من التناقض وعلى رأسها ، السعي إلى إرساء الديموقراطية ، والمحافظة على حقوق الإنسان ، حيث نصّبت أمريكا نفسها حامي الحمى ، وراعي السلام العالمي ، لكن جوهر هذا المبدأ هو التكالب من أجل تحقيق مصالحها الشخصية ، والارتقاء إلى أعلى المراتب على جثث ضحاياها ، ويبقى السبيل الأضمن لتفادي الغوص في أوحال مستنقع الانصياع والتبعية ضرورة التزام الحذر ، وترجمة كل وافد وقراءته بعيون ثقافتنا الأصيلة.

**2 – الحاسوب والترجمة الآليّة : –**

بات من الضروري الاعتراف بعبقرية عصر المعلومات الذي قدّم للبشرية خدمات جليلة ، ويسّر للإنسان سبل الحياة المريحة ، ومن أعظم ما انجرّ عن مخاض هذا العصر ، الذّكاء الاصطناعي المجسّد بصورة حيّة في جهاز الحاسوب الذي يعدّ – ولا ريب – فخر البشرية جمعاء ، لما يقدّمه من تسهيلات ، وخرق للحواجز ، والتّخصصات، إذ صار يعتمد عليه في مجالات البحث المختلفة وقضايا الترجمة ، والإحصاء ، والفهرسة ، والقدرة المذهلة على تخزين المعلومات وسرعة استحضارها ، وتصنيف المعاجم اللّغوية أحادية وثنائية اللّغة ، إضافة إلى إسهاماته القيّمة في مسألة معالجة المصطلحات العلمية واللغوية ... وغيرها من المهام التي يضيق المجال لذكرها جميعها .

وبعد أن كان الحاسوب – في منشئه – جهازا ضخما ، ومعقّدا ، وبطيئا ، صار اليوم يطمح إلى الجمع بين ضآلة الحجم ، والقدرة الفائقة على تنفيذ التعليمات ، بسرعة مهولة وبدقّة متناهية ، كما أصبح يزاحم باقي الأجهزة الإلكترونية ، ابتداء من ساعات

الـيد ، إلـى آلات التصـوير الفوتوغرافـي والأجهزة المنزلية من تلفاز ، وجهاز البث الرقمـي ، والمسجّلات ، وأدوات المطبخ ، وحتى السيّارة وتجاوزها إلى أدوات المخابر البيولوجية ، و معدّات الطب والتشريح ، ولم تسلم من غزوه مجالات الفن من موسيقى ، وسـينما ، وإعـلام ، كما فرض سلطانه على ميدان التعليم والتربية بما أتاحه من فرص الـتعلم الذاتـي والتعليّم عن بعد ، وتظهر براعته ورهبته – جليا – في المجال العسكري بكل ما يحمله من مفاهيم الجوسسة ، والمخابرات ، وضروب التسلّح التي استغنت عن الترسـانات الضخمة وعوّضتها بما خفّ وزنه ، وعظم شرّه ؛ ويكفينا مثالا على ذلك : تلـك الصواريخ المجهّزة برؤوس حاملة لجهاز حاسوب صغير يضمن إصابة الهدف بدقّة متناهية لا تحتمل الخطأ .

اكتسـاح كامل ومسح شامل لكل مظاهر الحياة المادية ، وهذا يدفعنا إلى الحركة في اتّجاهيـن ؛ التزام اليقظة والحذر في التعامل مع ما يصدّر إلينا من أفكار تدرك بالبصيرة لا بالبصر ، وفي الوقت نفسه النهل من نتائج الحضارة الحديثة ، وإتقان وصفة تصنيعها، وآلية العمل بها .

فـإذا اقتصر استعمال الحاسوب وامتلاكه – في بدايات ظهوره – على فئة قليلة ممن يطيقون أعباء تكاليفه الباهضة ، فقد أضحى اليوم في متناول شريحة عريضة من الناس، لانخفـاض تكلفـة تصـنيعه وتسويقه ، إذ صار ينافس باقي وسائل الإعلام والاتصال ، التـي تحظـى بشـعبية واسـعة في أوساط الجماهير ، كما أنّه يضمن اختيار ما يناسب إمكانيات الأفراد المادية والزمانية ، وما يتلاءم مع حاجاتهم ويرضي ميولاتهم .

والحديـث عـن الحاسـوب يتطلّـب دراسة مستفيضة ، ومعاينة ميدانية لآلية عمله وبرمجـته ، وسـأكتفي بالـتّطرّق إلـى إحدى مهاراته التي استطاعت أن تحقّق معادلة السـرعة، والراحة ، والدّقة ، وهي مفاهيم يصعب أن تجتمع في عمل واحد ، وأقصد –

تحديـدا – الـترجمة الآلـية ( La traduction automatique ) فكما هو معروف ، فالحاسـوب إنكلـيزي المولد والنشأة ، وهذا ما أدّى إلى طغيان مدّ اللّغة الإنكليزية على حسـاب غـيرها من اللّغات ، حيث اتّخذ الحاسوب منها أساسا لنظم معلوماته ، ومفاتيح تشغيله .

والسـؤال الذي سألج من خلاله إلى حديث الترجمة هو : ما السبيل إلى معالجة باقي اللغـات – ولـنأخذ عـل سبيل المثال العربية – بواسطة الحاسوب ، إذا علمنا أنّ اللغة العربـية واللغة الإنكليزية على طرفي نقيض من وجهة نظر حاسوبية ؟ ثم ، هل الترجمة بواسـطة الحاسـوب تحقّق –فعلا – النتائج المتوقعة بالكفاءة نفسها التي تضمنها الترجمة البشرية ؟ .

وللـرّد على هذه التساؤلات أقول : إنّ الحاسوب يعمل على تنفيذ التعليمات بناء على جملة من البرامج التي تغذى بها ذاكرته ، وقدرته على الترجمة الفعّالة تتناسب طرديا مع قـدرة البرامج التخزينية ، فكلّما زادت نسبة استيعابها لمفردات اللّغتين الأصلية والهدف ، زادت نسبة صحّة الترجمة .

ويشـترط إلـى جانب القدرة التخزينية العالية ، سرعة تنفيذ التعليمات ، وهذا يتوقف علـى غـنى رصـيدها المعجمـي ، والسرعة هنا تتضمّن الدقة في التنفيذ للوصول إلى المفـردات المطلوبـة ومـا يوافقهـا مـن معان دون أن ننسى ضرورة التزام البرامج الموضوعة برموز لغات الحاسوب التي نذكر منها ( Basique , Clipére ,Windev , Pascal , Débase ... ) ، والأنظمـة الخوارزمية التي يتعامل وفقها الحاسوب ، وهي مجموعة من التعليمات يمكن للحاسوب إتّباعها للوصول إلى أدقّ النتائج .

وإذا ألقيـنا إطلالـة سريعة على واقع الترجمة في اللغة العربية ، سنصاب بخيبة أمل مـردّها إلى تلك الأرقام الهزيلة لإنتاجنا ، التي لا تشفي غليل المشتغلين بهذا المجال ، أو

علـــى الأقـــل المستفيدين منه هذا عن الترجمة عموما ، أمّا فيما يخص الترجمة الآلية ، فـــالهوّة التـــي تفصـــلنا عن العالم المتقدّم صارت سحيقة رغم امتلاكنا للّغة المعجزة التي " تعـــدّ أفضل اللّغات على الإطلاق للاستخدام في الحاسوب ، إذ يمكن ربط معظم جذور كلماتهـــا بالمعـــنى العام والمعنى الدقيق " ( 6) فهي في الأساس لغة اشتقاقية تولّد الكلام بعضه من بعض ، والاشتقاق آلية تتناسب وعمل الحاسوب في توليد المواد اللّغوية ، وما دمـــنا مستوردين للعلم لا منتجين له ، فلما هذا التقصير في مجال الترجمة الذي يكفل لنا الإطّلاع على آخر ما توصّل إليه العلم ، ورغم هذا ، تبقى تلك الاجتهادات المتفرّقة مبعثا على التّفاؤل والأمل في تحقيق الأفضل ، ومن أمثلة تلك الجهود المشكورة ما قامت بعض شركات الحاسوب التجارية العربية في ميدان إنتاج لغات برمجة متعدّدة تستند في معظمها إلى لغة ( Basique ) ، ونذكر منها مثلا : الخوارزمي ، وديوان ، وصخر ...

والـــترجمة الآلية تستوجب تضافر مهارات عدّة بغية تحقيق نتائج مرضية ، ومن تلك المهارات نذكر الإحصاء اللّغوي ، الذي يقدّم بيانات مضبوطة عن مواطن تلاقي اللغات، ونقـــاط تباينها ، وهو يعكس موضوعية الدراسة الكميّة بخصوص شيوع الألفاظ في نصّ ما ، بغرض تحديد حقله الدلالي ، أو تقفي آثار ظاهرة لغوية في نصّ معيّن ، من خلال جـــرد نســـب تواترها فيه ، أضف إلى ذلك الاعتماد الكبير على علم الصرف الذي يتيح إمكانـــية تفكـــيك المفـــردات إلى مقاطع ، ثم إلى وحدات صوتية بغية دراستها ، ثم ضمّ الأجـــزاء لتشـــكيل الكـــلّ مـــرّة أخرى ، دون أن ننسى اعتمادها على النحو الذي قطع الحاســـوب فـــيه شوطا كبيرا ، إذ أثبت قدرته على تحليل النصوص إلى وحدات جملية ، وتحليل الجمل وإعرابها وتفريعها آليّا ؛ فمتى وظّفت كل هذه المهارات في مجال الترجمة الآلية ، تحقّقت الأهداف المسطّرة ، فكلّها عمليات يقوم بها الحاسوب لتوفير الجهد والوقت

علـى مسـتعمليه ، كمـا يضمن الدقة والسلامة من الخطأ ، وتلك كفاءات يستمدّها من البرامج ذات الجودة العالية .

وإذا سلكنا مسلكا تاريخيا في محاولة رصد أصول الترجمة الآلية ، سنجدها صمّمت لأغـراض تجسّسـية إبان الحرب الباردة ، عندما كانت أمريكا تحاول فكّ شفرات بعض الرسائل الروسية ، ولأن عمل المخابرات يقتضي السرّية ، اضطرّت إلى استبعاد جحافل المترجميـن ، وتعويضهم بآلة تضمن النجاعة والتكتّم ، والواقع أنّ الظروف كانت مهيّأة لاسـتقبال هـذا المولود الجديد ، وذلك تزامنا مع ظهور جهاز الكمبيوتر ، وكذا ازدهار الدراسـات اللّسانية ، وخاصّة المدرسة البنوية التي قدّمت خدمات جليلة للمشتغلين بحقل الإعلام الآلي ، وبرمجيات الحاسوب التي أفادت من نظرية تشومسكي التوليدية التحويلية أيّمـا إفـادة ، وكـثر الحديـث الـيوم عـن أهمية اللّسانيات التقابلية ( Linguistique contrastive ) فـي مـيدان الترجمة ، لما تقدّمه من مقارنات بين اللّغات المنتمية إلى عـائلات لغويـة متباينة ، وموازنات بينَ لّغات سليلة أصل لغوي واحد ، أضف إلى ذلك تـزايد وتـيرة الابـتكارات العلمية والتقنية ، وتطور الذكاء الاصطناعي الذي يطمح إلى مجـاراة الذكـاء الإنساني ، وبالفعل حققت الترجمة بواسطة الحاسوب قفزات نوعية في السنوات الأخيرة ، نتيجة لما أتاحه عصر المعلومات من إنفاق ببذخ في سبيل إنجاح هذه المهارة ، وتسخير فيالق من المهندسين المكوّنين على أعلى مستوى من الكفاءة ، وتلازم الجانب التطبيقي بتوأمه التنظيري .

وإذا عدنا أدراجنا إلى تعريف الترجمة الآلية سنقول : " إنّها تقنية تسعى إلى ضمان نقل معاني النصوص آليّا بواسطة جهاز الحاسوب من لغة أولى إلى لغة هدف " ( 7 ) .

وهذا التعريف يضعنا أمام جملة من التساؤلات لعلّ أهمها : هل ترجمة النصوص بواسطة الحاسوب تتطابق مع الترجمة البشرية لنفس تلك النصوص ؟ وإذا غلب طابع الحرفية على ترجمات الآلة ، فماذا عن نقل السياقات الثقافية والحمولات الدلالية لتلك النصوص ؟ خصوصا إذا علمنا أنّ اللّغات مهما تقاربت وتلاقحت تظلّ مختلفة وتحتفظ بسمات تميّزها عن باقي الألسن .

وللخروج من هذه الضبابية ، نحاول رصد تلك الآلية التي يتّبعها الحاسوب أثناء الترجمة ، قصد الإجابة عن الأسئلة المحيّرة .

مبدئيا ، نسلّم بوضوح خطوات الترجمة الآلية من منظور نظري بحت ، فانطلاقا من عبارة تتكوّن من ثلاث كلمات في اللغة الأم ، نبحث عن مقابلات لها في اللّغة الهدف ، وبعد الحصول عليها نخضعها للنّظام الصرفي للغة الثانية ، ولسياقاتها الثقافية حتى يبين المعنى .

يبدو الأمر بسيطا ولا تعقيد فيه ، ولكن شتّان بين النظرية والتطبيق ، فبعد تزويد ذاكرة الحاسوب بمعطيات نظرية حول آلية الترجمة ، وشروعه في تنفيذ التعليمات ، نصطدم بالطابع الحرفي لتلك الترجمات التي تبدو بعيدة عن معنى النص في لغته الأصلية ، وهذا مردّه إلى مشاكل معقّدة يقف الحاسوب إزاءها عاجزا، ونذكر منها :

*- إشكالية المعجم ، فكثيرا ما تحتكّ الترجمة بمسألة غنى المعجم اللّغوي ، فجلّ الكلمات في مختلف اللّغات تحتمل أكثر من دلالة ، وقد تتباعد هذه الدلالات ، وقد تكون متضادّة في بعض الحالات ، كما يمكن أن تقبل بعض المفردات عشرات الترجمات الممكنة ، فالآلة عاجزة عن اختيار الترجمة الموافقة للكلمة المقترحة .

*- إشكاليه متعلّقه بالنحو سواء في اللّغة الأولى أم في اللّغة الثانية ، فكلّ الأنحاء ( جمع نحو ) المتاحة بعتورها الكثير من الغموض ، فهي ليست صريحة بالكيفية التي تسهّل الترجمة الآلية .

*- ويبقى على رأس الحواجز التي تعيق الترجمة بواسطة الحاسوب الجانب الدّلالي ، ومراعاة الحمولات الثقافية التي تتباين من لغة إلى أخرى ، وللإشارة فإنّ هذه الإشكالية مطروحة في كلّ اللّغات تقريبا ، وهذا يستدعي ضرورة حصر جلّ الحقول الدّلالية المتوقّعة ، التي مهما كثرت وتنوّعت واستفاضت تظلّ منتهية ، ثمّ تصنيفها ضمن سجلاّت منظّمة ، وفق منهجية يتواضع عليها أهل الاختصاص ، حيث يسهل استدعاؤها كلّما اقتضت الضرورة ، كما أنّ الترجمة الآلية مهما برعت تظلّ نسبية ، ولا يمكن التّسليم بصحّتها مطلقا ، لأنّها راجعة إلى ثقافة المترجم وزاده اللّغوي ، ومدى موضوعيته ، وانفتاحه على ثقافات الأمم المختلفة ، فأداء الآلة يعكس مستوى مبرمجها الذي يصيغ عصارة زاده اللّغوي ، ورصيده الثقافي ، في شكل برنامج يقوم مقام الروح من جسد الآلة .

والنتيجة التي نخلص إليها - في آخر المطاف - أنّه ليس بوسع أية آلة أو برنامج ، ترجمة نص ما على أكمل وجه ، وبصورة مطابقة لما هو عليه في لغته الأصلية ، ورغم هذا يجب أن نحتفظ للترجمة الآلية بفضل السعي نحو جمع أقطاب تستعصي على الجمع وهي السرعة ، والراحة ، والإتقان .

**3- الإنترانيت وإسهاماتها في تواصل الشعوب :**

اضطربت الأقلام والألسن حول مسألة التطور المهول الذي يشهده عصرنا في كافة الميادين وعلى جميع الأصعدة ، وبخاصّة على الواجهة التكنولوجية التقانية ، التي أخرجت للسّاحة العالمية الكثير من أسباب الحضارة ، التي توفّر للإنسان حياة مادّية

مريحة ، فما أحوجنا اليوم إلى امتلاك وسائل التواصل مع الآخر ، لأنّ طبيعة عصر المعلومات تأبى العزلة وتمقت الحدود ، وليس من المعقول أن نطرق موضوع العولمة، أو مجال الحاسوب ومهارة الترجمة الآلية دون أن نشير – ولو من بعيد – إلى ظاهرة خرقت أفق التوقّعات حتى كادت تنفلت من أيدي صانعيها ، والمقصود هي شبكة المعلومات العملاقة " الإنترنيت / L'Internet " ، فإذا كانت العولمة هي المفهوم ، فالإنترنيت تقوم مقام المصطلح الذي يحوي هذا المفهوم ، وإذا كانت العولمة إيديولوجية ، فإنّ الإنترنيت تطبيق لهذه الإيديولوجية أو – على الأقل – قناة لتمريرها.

إنّ الإنترنيت فضاء شاسع تتحاور فيه الثقافات ، وتتلاقح من خلاله الحضارات ، فهي بوّابة فسيحة يتعامل الإنسان من خلالها مع العالم الخارجي بكلّ ما يحمله من تناقضات .

فرضت الإنترنيت وجودها على الساحة العالمية ، عندما تهيّأت لها التربة الخصبة بكلّ عناصرها الحيويّة ، من آلات حديثة ، وما شهده ميدان الاتّصالات من انتعاش وتقدّم هيّأ المناخ وسبّب الأسباب أضف إلى ذلك ، ما فرضته هذه الشبكة المعلوماتية من شفرات وطقوس على المشتركين فيها ، مع ضرورة الالتزام بها لضمان التدفّق الغزير للمعلومات ، وهي – بحق – تجسيد لروح عصر المعلومات الذي تسمّى باسم أهمّ مقوّم فيها ، وأغلى سلعة تسوّقها ، وليس غريبا أن تتّخذ شعارها :

" معلومات في كلّ وقت ومن أي مكان " المختزل في رمزها " WWW " ( 8 )

فدورها الأساسي ترجمة كل مناحي الحياة من سياسة ، واقتصاد ، واجتماع ، وفلسفة ، ودين ، وفن ... إلى معلومات وإعادة بثّها في كل الاتّجاهات وكأنّ عملها هو التجميع وإعادة التوزيع .

استنفذت الإنترنيت كلّ مفاهيم القوّة والرّهبة ، وكأنّها تستعرض عضلات صانعيها على مرأى من الدول التابعة ، ويتجسّد ذلك بوضوح فيما أسند إليها من أوصاف للدّلالة على اتّساع أفقها ، وبسط سلطانها ، ومن ذلك نجد : سيل المعلومات ، وثورة المع لومات ، وانفجار المعلومات ، وإعصار المعلومات ... وغيرها كثير ، وكأنّها تكشف عن بعض ما تبطنه من النوايا المبيّتة في امتصاص عصارة ثقافات الشعوب المنخرطة في صفوفها بدعوى الحوار الحضاري بين الأمم .

ولا شكّ أنّ السبب المباشر في انتشارها الواسع ، بسرعة خاطفة راجع إلى سهولة استخدامها والاشتراك فيها ، أضف إلى ذلك ، تدنّي تكلفة تصنيع وتسويق معدّاتها ، إذ يلزم للاتّصال بها : جهاز حاسوب عادي مزوّد ببطاقة " Modem " ، وخط هاتفي موصّل سلكيا ، واشتراك في الشبكة مقابل مبلغ مالي معقول ، ويكفي إعطاء تعليمة للحاسوب من خلال موزّع إلكتروني " Serveur " ، أو عن طريق إدخال عنوان إلكتروني " Email " حتى نجد أنفسنا نسبح في فضاء المعلومات الواسع ، ونقتني منه ما نشاء من معارف وخبرات .

وليس غريبا أن تصبح الإنترنيت الأداة المثلى للتّجارة الإلكترونية ، لما تشهده قنواتها الفرعية من صفقات تجارية يختلف فيها المتعاملون ، وصنوف التبادلات ، والعملات ، واللّغات ... ، كما استطاعت أن تخلق فضاء للحوار المباشر بين الأفراد والجماعات ، وهي بذلك تحطّم قيود المسافات وتباين اللّغات ، كما عدّها الكثيرون إيذانا بانتهاء عصر احتكار الإنسان للذّكاء ، بعدما امتدّت واستطالت ، وارتكزت على تلك التشكيلة المتنوعة من الأقمار الصناعية مختلفة التخصّصات ، وعلى بنوك معلومات لا حصر لها ، تقوم مقام المموّل بالمادّة الخام ( المعلومات ) ، وتطوّر أنظمة

البرمجيات ، التي تستند إلى معادلات رياضية معقّدة ، ونظم اتّصالات متناهية الدقة والكفاءة .

وبزيادة وتيرة التقدّم العلمي ، وتضاعف عدد زوّار هذه الشبكة المتواصل ، زادت المخاوف من إمكانية انفلات السيطرة على هذا العملاق المتمرّد ،وجاءت هذه الهواجس نتيجة إدمان بعض المحترفين التلاعب في أرصدة هذه الشبكة ، الأمر الذي أدّى إلى حدوث كوارث مردّها إلى تلك الفيروسات السابحة في أرجاء هذا الفضاء المعلوماتي ، والتي تحطّم كثيرا من الملفّات السّرية المهمّة لدى بعض الهيئات القيادية ، ونذكر مثالا على ذلك حادثة فيروس " I Love you " الذي أتلف سجلاّت وزارة الدفاع الأمريكية ، والذي بثّه شابّ ياباني من روّاد هذه الشبكة .

وبعد كلّ ما قيل ، لم يبق أمامنا خيار سوى التعامل مع ما تقدّمه الإنترنيت من عوامل التطوّر ووسائل التقدّم والرقي ، وأعود – مرّة أخرى – لحديث الترجمة التي تعدّ المفتاح الأصلح للتّفاعل مع ما تعرضه شبكة المعلومات العالمية ، خاصّة إذا علمنا أنّ الإنترنيت – في أصلها – " رسائل إعلامية تستهدف عقولنا " ( 9 ) ، حيث أصبحنا كمن يعاني نزيفا داخليا بعدما صارت ثقافتنا فريسة لكل طامع بحجّة تلاقح الحضارات ، وحوار الشعوب ، ولا سبيل إلى الفكاك أو التراجع أو حتى الحياد ، ولم يبق لنا إلاّ غربلة كلّ وافد ، ولن يتأتّى ذلك إلاّ إذا أتقنّا توظيف مهارة الترجمة الواعية التي تكشف ما بين السطور ، وتفضح السياقات المبطّنة ، وفي ذلك يقول " نبيل علي " : " ألم يحن الوقت بعد لنؤمن بأنّ نهضة الإعلام ليست فقط في إقامة القنوات الفضائية ، وإطلاق الأقمار الصناعية واستيراد أحدث المطابع الصحفية ؟ فالأهم من ذلك هو القدرة على إنتاج رسالة إعلامية مبتكرة ونافذة " (10 ) ، وفي ذلك دعوة لنبذ التبعية والشروع في إرساء معالم بحوث علمية محلية تحقق لنا الفخار بفضل السبق

والرّيادة ، مع الحثّ على ضبط المفاهيم ، والعودة إلى الجوهر الذي أهملناه بركضنا خلف قشور الحضارة المغرية ، فما عدّده هذا المفكّر الباحث هي نواتج الحضارة ، لأنّ الحضارة هي القدرة على الإنتاج وليست المنتوج ، ولبلورة الوعي ندعوا إلى إعمال الفكر و الإطّلاع المتمعّن الذي يستوجب حضور تقنيات الترجمة الواعية ، القائمة على أصول علمية متينة تعصمنا خطر إعصار لغات الدول المهيمنة ، ونفاذ البصيرة ، والإيمان العميق بجودة ما لدينا .

وليس يخفى أنّ الترجمة واحدة من أهم المهاراة التي يسعى الباحث إلى تجميع جزئياتها ، و إحكام السيطرة على مفاتيحها ، لما تضمنه من انفتاح على مستجدّات الحقول الحيوية ، فمن واجب الغيورين على ثقافتنا الأصيلة ، إعادة الاعتبار للترجمة ، من خلال تقديم دراسات مستفيضة حول آلياتها وإيجابيّاتها ، ودورها الرّيادي في إرساء مفهوم الوعي القومي .

## الهوامـــــــش

1- الأبعاد التربوية للصراع العربي الإسرائيلي ، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الكويت صفحة 26 .

2- تعبير مقتبس من كتاب تاريخ آداب العرب ، لمصطفى صادق الرّافعي ، صفحة 172 .

3- Collection Microsoft ® Encyclopédie Encarta® 2003 , tous droits réservés .

4- د . نبيل علي , الثقافة العربية وعصر المعلومات ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 276 ، مطابع السياسة ، الكويت ، ديسمبر 2001 ، صفحة 99 من

5- زيارة موقع " عجيب " على الإنترنيت بإدخال مادة " عولمة " ، WWW . Ajeeb . com

6- د . عبد جزّاع العجيلي ، خلود عمر الرجوب ، الحاسب الإلكتروني والترجمة الفورية ، كلية العلوم ، جامعة اليرموك ، إربد ، صفحة 26 .

7- Encyclopédie Universalis © France S.A , 1999 , tous droits réservés .

8- موقع " أين " ، مادّة " إنترنيت " ، WWW . Ayna . com

9- فكرة مقتبسة من كتاب الثقافة العربية وعصر المعلومات ، لنبيل علي ، صفحة 102 .

10- نبيل علي ، الثقافة العربية وعصر المعلومات ، صفحة 33 .